مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 2 / ديسمبر 2023
ص ص 94-109

أدلجة الحدث التّاريخي في رواية "الأمير" لواسيني الأعرج.

The Ideologizing of the Historical Event in the Novel “Kitab El Amir” by Wasini Al-Araj

جمال سفاري
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف (ميلة)، d.seffari@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2023/08/16 القبول: 2023/12/30 النشر: 2023/12/31

ملخص:

تعدّدت قراءات النّقّاد للرّواية التّاريخية العربية، التي ركّزت على علاقة الجانب السّرديّ بالجانب التّاريخيّ فيها، ومدى تفاعلهما، واتّفقت الرّؤى على التّمييز بين البعدين الحقيقي والخيالي في هذه الرّواية، لما تضمّنته من تجاوز للبعد الواقعي. ونحاول من هذه الورقة البحثية الوقوف على النّسق الأيديولوجي المضمر الذي تضمّنه ذلك التّجاوز (تجاوز البعد الحقيقي للرّواية لحساب المتخيل فيها)، ونحا به إلى أدلجة الحدث التّاريخي في رواية "الأمير" للرّوائي واسيني الأعرج؛ وأدى الى خرق أفق انتظار القارئ، الذي ارتسمت في ذهنه صورة مسبقة لأحداث الجزائر زمن الأمير عبد القادر.

الكلمات المفتاحية: "كتاب الأمير"، الحدث التّاريخي، الحدث المتخيّل، النسق الأيديولوجي.

Abstract:

Many critics have read the Arabic historical novel and focused on the relationship between the narrative and historical sides of the novel and the extent of their interaction. These critics agreed on distinguishing between the real and imaginary dimensions in this novel because of its transgression of the realistic dimension. In this paper, we try to identify the implicit ideological pattern that was included in this transgression (bypassing the real dimension of the novel to account for the imaginary dimension in it) and directed it to the ideologicalization of the historical event in the novel “Kitab el Amir” by novelist Wasini Al-Araj. This led to breaching the horizon of waiting for the reader who had a preconceived picture about the events in Algeria at the time of Emir Abdelkader.

Keywords: "Kitabe el Amir”, the historical event, the imagined event, the ideological system.

1.مقدمة:

تضمّنت رواية "كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد" لواسيني الأعرج مادةً تاريخيةً تروي جانبا من حياة الأمير عبد القادر، أضفى عليها الرّاوي بُعدا سرديّا، مستعينا بالإمكانات التّصويرية والفنّية التي يوفّرها هذا الجنس الأدبي، وقد أسهم هذا التّرافد (الفني/ التّاريخي) في ترسيخ الأحداث التّاريخية لتلك الحقبة الزّمنية، وكان لجوء الرّوائي إلى تلك الأحداث التّاريخية ليبني عليها روايته، وهو حينذاك، لم يحتج إلى تلك المادة كتاريخٍ سمتُهُ الموضوعية والتّجرّد وتسجيل الوقائع بعيدا عن الذّاتية والتّحيّز؛ بقدر احتياجيه إلى مادة حكائية تُعينه على تقديم رؤية خاصة عن الإنسان والحياة،

وكان النّاتج: رواية تاريخية، فنّية، لا تنقلُ التّاريخ المحض، وإنما تنقل تصوّر الأديب له، وتفاعله معه بشكل فنيّ.

ولمّا كان التّأكيد منعقدٌ على أنّ الرّواية التّاريخية لا تُعنى بإعادة كتابة التّاريخ، بل بإعادة قراءة التّاريخ بطريقة سردية تخالف ما تواضعت عليه الوثائق التّاريخية المتوارثة؛ فإنّ البحث الذي نُقدِم عليه يسعى إلى مساءلة تلك القراءة ودلالاتها الأيديولوجية المتوارية خلف السّردي والجمالي في رواية "**كتاب الأمير**" للرّوائي واسيني الأعرج؛ بتوظيف آليات منهج النّقد الثّقافي، الأنسب لسبر أغوار النّسق المنشود.

وتكتسب الدّراسة أهميتها من حيث أنّ رواية "كتاب الأمير" تعرض لحياة رجل دولة، ورمز من رموز الأمّة العربية والإسلامية، بما تحوزه هذه الشّخصية من أبعاد دينية، واجتماعية، وسياسية؛ حيثُ يغدو أيّ تحريفٍ أو تحويرٍ، متعمّدا كان أو عفويّا، عمّا رسخ في الأذهان حول هذه الشّخصية، محطّاً مساءلةٍ عن الخلفيات الدّاعية إليه، ويُوجبُ التّوقّف على مرامي هذا الانتهاك وخلفياته، خاصة إذا تمّ ذلك بشكل واضح، فاضح، ومن النّقيض إلى النقيض.

2. التّاريخ في رواية" كتاب الأمير".

عرفت الرّواية العربية التّاريخية المعاصرة تجاذبا متناميا بين الجانب التّاريخي، والمتخيل السّردي فيها؛ ويثبت المهتمون بهذا التّجاذب أن الرّواية التّاريخية قد مرّت بثلاث مراحل متتابعة، كانت أولاها: **مرحلة الهيمنة التّاريخية**، أو إعادة تسجيل التّاريخ، "**حيث هيمن التّاريخ بأحداثه، وشخصياته، وفضائه الزماني والمكاني على السّرد، واقتصر دور السّرد بتقنياته التّقليدية على تقديم الحقائق التّاريخية**"(البحيري، 1430هـ، 2009م، صفحة 752) ؛ وكان التّخييل فيها باهتا، أو شبه منعدم؛ ثمّ **مرحلة التّوازن السّردي والتّاريخي**، التي لم يطغ فيها طرف على الآخر، عاد فيها الرّوائيون إلى "**...التّراث والتّاريخ لإسقاط قضايا واقعهم المعاصر على الأحداث والشّخصيات التّاريخية القديمة، وصار الفضاء المكاني والزّماني التّراثي صالحا للتّعامل مع القضايا والمشكلات المعاصرة عن طريق الرّمز، والإيحاء، والإسقاط**" (البحيري، 1430هـ، 2009م، صفحة 753) ؛ وأمّا المرحلة الثّالثة (ومنها رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج)، فهي **مرحلة الهيمنة السّردية**، التي تخلّت فيها الرّواية عن "**الالتزام الدّقيق بالأحداث التّاريخية وتطوّراتها الفعلية...**" (البحيري، 1430هـ، 2009م، صفحة 754)، وهي مرحلة استُثمِرَ فيها التّاريخ، واستُعمِل لتقديم قراءة أخرى للأحداث التّاريخية: قراءةٌ تحتفظ بظلال التّاريخ، ولكنّها تعلي من فنية السّرد والتّخييل على حسابه.

وعلى الرّغم من التّمايز الواضح بين الرّواية والتّاريخ من حيث أنّ "**الحدث التّاريخي في تشكيله الواقعي سابقٌ على الحدث الرّوائي بطبيعة الحال، وكلّ تاريخ سابق بالفعل والإجراء –زمنا ووجودا-على الرّواية**" (عبيد و البياتي، 2008، صفحة 21، 22) ؛ فإنّ كلّ من الرّوايةَ والتّاريخ يشتركان في اعتماد السّرد والاهتمام بالشّخصيات والأحداث الماضية، ورواية الأخبار، ولئن كانت سمة التّاريخ هي محاولة استرداد الماضي بواقعية، فإنّ سمة الرّواية المعاصرة هي استثمار تلك الحكاية لقراءة الحاضر، بطريقة فنية تخييلية [1]؛ لذلك فإنّ الرّواية التّاريخية، ومنها رواية "كتاب الأمير" هي محاولة لتنظيم أحداث تاريخية، وإعادة صياغتها

بطريقة يلعب فيها الخيال الدّور الأساس، ويؤدّي فيها الوفاء للتّاريخ إلى إهمال فنيات الرّواية، وبالمقابل يؤدّي الاهتمام بفنياتها إلى العبث بالتّاريخ وقلب حقائقه. ومنه يمكن اعتبارُ هذه الرّواية مصدرا غير تقليديٍّ للتاريخ؛ بما تُوافِق فيه التّاريخ الرّسميَّ للأمّة، وبما تُسجّله وتُضيفُه من قراءات خاصة حول أحداثها وشخصياتها التي عاشت في صلب الأحداث أو هامشها، وهو ما يمنح الرّوائي إمكانية تقديم رؤاه، واستنتاجاته حول ما جرى سابقا، لأغراضٍ أعمق من مجرّد السّرد، فرواية كتاب الأمير لواسيني لا تقتصر على كونها لونًا أدبيًا غرضه الحكاية، وإنّما هي محور هام في تدوين التّاريخ وحفظ بعض تفاصيله الجزئية التي أغفلها التّاريخ كعلمٍ موضوعيٍ حديث.

إنّ رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج بما تضمّنته من تعبير عن نبض الحاضر، رغم تحركها في فضاء زمنيٍّ سابقٍ ومختلفٍ، كان للخيال فيه الدّور البارز في ترجمة رؤى جديدة من وقائع تاريخية مثبتة، هي نموذج للرّواية المعاصرة التي تعكس نجاحَ وخصوبة التّفاعل بين الرّوح التّقريرية، التّصويرية والموضوعية في علم التّاريخ، من جهة، وبين روح التّجاوز، والإنشاء، والتّخيّل في فن الرّواية، من جهة ثانية؛ إنّها مغامرة سرديّة تسعى إلى إثارة حاضر الإنسان المعاصر باستحضارها لماضيه الغابر، وإعادة طرحه بطريقة تفاعلية تعيد مساءلة تلك الأحداث، والشّخصيات، دون أن تعترف بوقفيتها وثباتها؛ فـ "**كثيرا ما تكون الرّواية التّاريخية نابضة بهموم حاضرنا رغم تحركها في زمن مضى! وذلك بفضل الأسئلة التي يطرحها الرّوائي المؤرق اليوم بهمّ الواقع وبؤسه.**" (حمود، 2013م، صفحة 155) ولذلك، لم تهتم هذه الرّواية التّاريخية "...**بإعادة سرد الأحداث التّاريخية، بل أن [تجعلنا] نعيش مرة أخرى الدّوافع الاجتماعية والانسانية التي أدت بالنّاس إلى أن يفكّروا، ويشعروا، ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التّاريخي.**" (لوكاتش، 1986م، صفحة 46)

3. استراتيجية نقل الخبر في رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج.

رواية الأمير هي محصّلة تفاعل مرجعيتين: الأولى: هي المرجعية الحقيقية والموضوعية، المستوحاة من الأحداث التّاريخية التي تروِيها الوثائق التّاريخية، وفيها يساير الرّوائي ما تواضعت عليه تلك المصادر التّاريخية، وأمّا الثّانية، فهي: المرجعية التّخييلية الرّوائية، المقترنة بالحدث الفنّي (الرّوائي)، والتي تفسح له مجالا واسعا في توجيه أحداث روايته الوجهة التي يرتضيها. ولا تتحكّم فيها إلّا مقتضيات الفن الرّوائي بأبعاده المختلفة. ويثبت الدّارسون تمايز طرق توظيف الخبر التّاريخي، وسرده فنّيا، من حيث درجة التزام الرّاوي صحّة أحداثه، وسَرِدِها أصيلة كما حدثت، أو إعمال الخيال فيها وتجاوز معيار صدق تلك الأحداث، بحيث يزيد فيها أو ينقص، أو يُعدّل؛ وتتنوّع بحسبهم أضرب سرد تلك الأحداث في الرّواية التّاريخية بين ثلاثة أنماط (سالمي، 2021م، صفحة 39، 40):

1.3 الخبر التّاريخي:

بالنّظر إلى تمييز الشّكلانيين الرّوس بين القصّة والخطاب، أو المبنى الحكائي، والمتن الحكائي [(2)]، فإنّ الخبر التّاريخي يندرج تحت مستوى المتن الحكائي الذي يقدّم أحداثا وقعت بالفعل، وترتبط بالتّاريخ، وتحافظ على أصالة

وقائعه دون تحريف، أو تزييف. ويمكن القول أنّ في مثل هذا النّمط من سرد الأحداث يتساوى المتن الحكائي بالمبنى الحكائي؛ وقد التزمه واسيني في رواية الأمير في محطّات سردية عديدة منها، نقله لمراسلات الأمير إلى السّلطات الفرنسية بحرفيتها، واحتفاظه بأسماء الأعلام الذين كان لهم دور في قصة الأمير كما جاءت، وكذا التزامه للتّواريخ الزّمنية، والأمكنة، التي دارت فيها الأحداث بدقة كبيرة.

2.3 الخبر التّخيّلي المحاكاتي:

هو خبر يحاكي الواقع، ويعيد إنتاجه وتمثيله تمثيلا تخييليا، أدبيا، يتجنّب فيه الرّاوي التّسجيل المباشر للأخبار التّاريخية. وأهم مظاهر هذا التّخييل قدرته على كسر المرجعية الزّمنية، وتجاوزها، من خلال المفارقات الزّمنية مثل (الخلاصة، والوقفة...)؛ كما بإمكانه كسر مرجعيات أخرى؛ مثل المرجعية المكانية. ويظهر هذا النّمط من الأخبار في رواية الأمير بكثرة، ومثاله بداية قصّة الأمير التي وظّف فيها الرّاوي مفارقة زمنية أجلى منها بعض الأحداث التي توضّح تعلّق القس (ديبوش) بالجزائر؛ حيث تنطلق القصّة من سردِ سعيِ غلامِ القسّ ديبوش إنفاذَ وصيته بعد موته؛ ثم العودة إلى بداية أحداث القصّة بسرد تفاصيل بيعة الأمير وما انجرّ عنها، إضافة إلى إغفال أجزاء كبيرة من سيرة الأمير النضالية، خاصة ما دار منها في بلاد الشّام تحديدا.

1.3 الخبر التّخيّلي:

يقوم الخبر التّخيّلي على خرق الواقع، و"**يتميّز الخبر التّخيّلي الذي يندرج ضمن مستوى الخطاب (المبنى الحكائي) بتوظيف العجائبي في الشّخصيات، والأحداث، والأزمنة، والأمكنة.**" (سالمي، 2021م، صفحة 45) وإذا كان الرّوائي في النّمط الأوّل من أنماط سرد الأحداث التّاريخية سيتّصف بالحياد، ويلتزم الأمانة العلمية (التّاريخية)؛ لأنّه سيقرّ ما كان بالفعل (كما ألمحنا إلى ذلك في سرد الخبر التّاريخي)، فإنّه في النّمطين الآخرين ملزم بملء الفراغات، واستكمال النّقص الذي يمكن أن يتخلّل سرد الأحداث المسكوت عنها، أو حتى إضافة بعض التّفاصيل من عنده؛ وهنا يحق لنا التّساؤل عن الدّوافع التي تجعل الرّاوي ينتخب سيرا معينا للأحداث دون غيرها ليستكمل بها ما أغفله السّرد التّاريخي (الواقعي)، من بين مجموعة كبيرة من الإمكانات السّردية، والتي لا شكّ أنّ الرّوائي بالتزامه إيّاها يكون تحت سطوة اتّجاهاته وميوله، ورؤاه، التي تختصر ايديولوجيته.

4. آليات أدلجة الحدث التّاريخي في رواية "كتاب الأمير".

تتناص رواية الأمير مع نصوص وأحداث تاريخية، منها أحداث رئيسة (ثابتة تاريخيا)، يمكن القول أنّها تشكّل مركز الحدث، ومنها ما هو ثانوي، وهو ما تتضمنه الرّواية من أحداث متخيلة انتخبها الرّاوي ليستكمل بها تفاصيلَ قصّته، ولكنّها لم تثبت تاريخيا، وهو ما يعتبرُ هامشا يمكنُ للرّاوي المناورة من خلاله ليمرّر رؤاه وايديولوجيته؛ إنّ تلك الأحداث الهوامش التي يضمنّها الرّاوي حكايته هي إحدى المخرجات السّردية المُمكِن تقديمها (من بين العديد منها الرّوايات المحتملة)، لذلك لا نشكّ أنّ فعل القصد إلى ذلك الخرق المُستَحدَث في نظام الأحداث، وواقعيتها، والتّركيز على تلك التّفاصيل بعينها-دون غيرها-تشي بتماشيها مع فلسفةٍ ورؤيا

معينة، يسعى القاص إلى ترسيخها في ذهن المتلقي، وفرضها كبديل مقنع على المتلقي بالاستعانة بالفنّي والجمالي.

إنّ التّسليم بسريان التّخييل في نسج النّص الرّوائي التّاريخي يستتبعه الاعتقاد بنسبية واقعية الأحداث المروية، وبالتالي عدم الارتكان إلى قراءة واحدة جاهزة، نعتقدُ قطعيةَ أحكامها، وهو ما يفرض على القارئ ممارسة دورٍ مركزيّ (واعٍ) بمواصلة بناء النّص، وعدم الوقوف على استهلاك الرّواية المروّج لها، والاكتفاء بوجهة نظر كاتب النّص المعلّبة ضمن إطار مرجعياته الفكرية والأيديولوجية.

وقبل التّطرّق إلى الآليات التي انتهجها الرّاوي الاستعمارية الأخرى.

لأدلجة الحدث التّاريخي في روايته (الأمير)، نشير إلى تمييز الدّارسين بين الأيديولوجيا في الرّواية، والرّواية كإيديولوجيا. فالأولى هي أيديولوجيا متعلّقة بالشّخصيات أو الهيئات التي تحرّك أحداث الرّواية، ولا تمثّل بحال رؤيا الكاتب أو ايديولوجيته، ذلك أنّ لكلّ شخصية من شخصيات القصّة أو هيئاتها، صوتها الخاص، ولغتها الخاصّة، وموقفها الخاص، وبالتّالي ايديولوجيتها الخاصّة، التي لا تعني الكاتب بأي حال؛ أمّا الرّواية كإيديولوجيا فهي تعبير عن تصوّرات الكاتب بواسطة تلك الأيديولوجيات المتصارعة نفسها؛ فكاتب الرّواية غالبا ما يقوم بعرض أيديولوجيات متعلّقة بقوى متصارعة (أو متآلفة) في روايته، والمواجهة بينها، من أجل أن يقول ضمنيا شيئا آخر، ربما يكون مخالفا لجموع تلك الأيديولوجيات نفسها؛ أي أنّ الرّواية كأيديولوجيا تعني موقف الكاتب وايديولوجيته تحديدا، وليس موقف الأبطال كل منهم على حدة، ولا يمكن الحديث عن هذه الأيديولوجيا إلا بعد استيعاب طبيعة الصّراع بين الأيديولوجيات المختلفة المتوارية في النّص. (لحميداني، 1990م، صفحة 35)

وبالنّظر في رواية الأمير يمكن القول أنّ الصّراع الماثل بين القوى الفاعلة والشّخصيات المختلفة، قد رسم ايديولوجيات متعدّدة، استبطن منها الرّاوي نسيجا رؤيويا خاصا نحو العالم، والتي يمكن النّظر فيها من التّفاعل الرّؤيوي الماثل بين قوتين بارزتين في الرّواية، هما:

- **الأنا**، ممثّلا في: الأمير عبد القادر، ومجتمعه.
- **الآخر**، ممثّلا في: القس ديبوش، والشّخصيات

حيث ترتسم أيديولوجيا الكاتب في رواية الأمير من مواقف عدّة يفصح عنها السّرد حينا، ويستبطنها كثيرا، ويمكن النّظر فيها من العلاقات البينية التّالية:

أ. التّوافق والتّقارب بين أفكار ومواقف الشّخصيات المتنافرة أو المتضادّة في النّص، ومثاله التّوافق بين الأنا والآخر، وهو ما تَجَسّدَ روائيا في العلاقة الودّية بين الأمير عبد القادر، والقس ديبوش، على وجه الخصوص.

ب. التّوافق والتّقارب بين أفكار، ومواقف الشّخصيات المتآلفة في النّص، وهو ما يظهر في الانسجام بين الأمير عبد القادر، ومجتمعه عموما، من حيث ضرورة مقارعة الغازي؛ كما يظهر في تماهي نظرة القس ديبوش وبعض العسكريين الفرنسيين، التي يجلها السّرد، من حيث العزم على استيعاب الجزائر، وإخضاع ساكنيها.

ج. التّنافر بين أفكار، ومواقف شخصيات متنافرة في النّص، (الأنا، والآخر). كالاختلاف بين الرؤى الذي يظهره السّرد من حين لآخر بين الأمير والقس ديبوش، أو شخصيات فرنسية أخرى. ومنه نجد قول الأمير، بعد أن أدرك حقيقة وضعه أسيرا لدى الفرنسيين، واجتماعهم على خلاف ما يُؤمِلُ ويعتقد: "**... كنت أظنّ أنّ الحكومة المؤقّتة ستحلّ المشكل نهائيّا ولكن الظّاهر أخطأت. فيما يتعلّق بوضعي، يتساوى الجمهورين والملكيون. ربّما كنت المكان الوحيد الذي يلتقيان فيه بدون خلافات تُذكر.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 533)

د. التّنافر بين أفكار، ومواقف شخصيات متآلفة في النّص، وهو ما يجليه السّرد في بعض المواقف من اختلاف الرؤى بين الأمير ومجتمعه من بني جلدته أو ملّته، أو بين القس ديبوش ومجتمعه أيضا؛ ومن أمثلة ذلك قول الأمير، مستبطنا مخالفته بعضَ فكر قومه: "**كنت أقاتل ليس فقط الفرنسيين، ولكنّني كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض خلفائي، فيظنّون أنّهم ملّاك الحقيقة، فيُكفّرون ويقتلون من يشتهون...**" (الأعرج، 2008م، صفحة 148)؛ أو قوله مستهجنا، مستغربا، أفعال ملك المغرب، آنذاك:"**...على الرّغم من القلق والحزن على أولادنا ونسائنا، أقول الحمد لله أنّهم لم يسقطوا بين أيدي المخزن، وإلاّ لحدث لهم ما حدث للبوحميدي الذي ذهب مفاوضا وانتهى سجينا قبل أن يعدم. عدوّ واضح أحسن بكثير من صديق يبيع ويشترى رأسك...مولاي عبد الرحمان باعنا بالرّخيص في اللّحظة التي وقّع فيها ضدّنا على الوثيقة التي تعتبرنا قطّاع طرق.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 457، 458)

إنّ المتتبّع لترويج الرّاوي وتوزيعه قيمتا "التّوافق" في المواقف والرّؤى، أو "التّنافر" فيها، بين القوى الفاعلة في النّص يجد أنّها لا تحتكم بالدّرجة الأولى إلى نظرة عرقية، أو دينية، أو سياسية معينة، بقدر ما تستند إلى قيم إنسانية، كالتسامح، الحرية، المساواة، التّعايش، الاحترام... وهي القيم التي تتلاشى معها قيم التّعصّب، وتنزيه الذّات، وشيطنة الآخر والاعتقاد بالخيرية والتّفضّل عليه...

وفي عرضه للعلاقات البينية سابقة الذّكر، يستخدم واسيني الأعرج مجموعة من الآليات والتّقنيات يواري بها ايديولوجيته وتصوّره للأشياء، منها:

1.4 الانتقائية:

ويقصد بالانتقائية أن يجنح الرّاوي إلى ملمح سردي فيفضّله على مجموعة من الخيارات السّردية الأخرى الممكنة؛ وممّا نجده منها في رواية الأمير لواسيني، الانتقائية الحاصلة على مستوى اللّغة السّردية (الواصفة)، أو على مستوى الشّخصيات الرّوائية المنتخبة، أو على مستوى التّرتيب الزّمني للأحداث كذلك... والمعنى هو أن يعمد الرّوائي إلى تخيُّر سرد أحداث معيّنة، وإغفال أخرى؛ كما قد يطال الانتقاءُ الشّخصياتِ، فيركّز السّرد على إظهار شخصيات بعينها دون غيرها، أو التّركيز على بعضها دون الأخرى، كما قد تمتدّ عملية الاختيار والانتقاء لتشمل الأزمنة، والأمكنة، والأحداث... بحيث لا تتفق هذه الاختيارات مع واقعها التّاريخي، أو مع حجم تأثيرها في الواقعة التّاريخية.

فمن المواطن التي يشتطّ فيها الرّاوي في تخيّر لغة سردية واصفة "مأدلجة"، نتوقّف عند

افتتاحيته لإحدى وقفات "منزلة الابتلاء" [3] في الرّواية، واصفا يوم بيعة الأمير، حيث قال: "**1832. عام الجراد الأصفر. هكذا يسمّيه العارفون ورجال البلاد والصّالحون وزوّار الزّاوية القادرية الآتون من بعيد. منذ الصّباح. تبدأ فلول الجراد الأولى تسقط على سهل اغريس مُشكّلة مظلّة سوداء على الحقول والمزارع. حتى حوافي وادي الحمام السّاخن تصير صفراء من كثرة الجراد العالق بالأطراف وبشجيرات الدّيس والمارمان التي تكسو أطراف الوادي. حتى الرّياح الجنوبية التي هبت ليلة البارحة لم تجلب معها إلّا مزيدا من الرّمال والأتربة وأسرابا لا تُحدّ من الجراد.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 64)

إنّ اللّغة السّردية الموظّفة في وصف العام الذي بُويع فيه الأمير، ووَسْمِهِ أنّه عام "الجراد الأصفر"، يشي بشؤمه، ويوحي بشؤم ما سيكون فيه، وما سيترتّب عنه لاحقا؛ وقد أمعن الرّاوي في ازدراء يوم بيعة الأمير في ذلك العام، بذكر تلك الظّواهر الطّبيعية المستكرهة المصاحبة له، من غزو للجراد، وتطاير للأتربة، وجوّ مكفهر...الـخ. ثم بنسبة تسمية ذلك اليوم الذي كانت فيه البيعة إلى من وسمهم بالعارفين، والصّالحين، ورجال البلاد، وروّاد الزاوية...؛ وكأنّ نخبة المجتمع، وأخياره، قد أجمعوا على نعت هذا اليوم بهذا الاسم، وبالتّالي توافقهم على دلالاته العاطلة؛ رغم أنّ أَمْرَ مثل هذه التّسميات قد يطلقها فرد واحد، أو جماعة، فتسري في المجتمعات، وتفرض نفسها فرضا على الجميع، وأنّ البعض قد ينكرها، ولكنّهم يضطرون إلى مسايرة الجمع فيما اصطلحوا عليه.

تخيّر السّارد، إذا، تلك الصّفات ليدلّل بها على حدث مهم في حياة الأمير، وهو يوم بيعته أميرا. اليوم الذي اجتمعت فيه الأمّة على رجل صالح يقود مسيرتها خلال تحدّيات جسام، وأمَّلَتْ منه خيرا لمستقبلها في ظلّ قيادته لها. لكن الواقع السّردي، واللّغة الواصفة المنتهجة يجعل قارئها يحكم ألّا أشأم من مثل هذا اليوم المكفهر، العبوس، الذي ينذر بالشّر. وانطلاقا من الخلفية الثّقافية لبعض المتلقّين، قد يحكم على هذا اليوم، من هذا الوصف، بأنّه يوم نحس في تجلّيه، وفيما سيسفر عنه من تبعات الاجتماع الذي دار فيه، والبيعة التي كانت؛ فهل هذا الذي يريد الرّاوي أن يضعه في خلد متابعيه، وقارئوا قصصه؟!

ومن الانتقائية التي تختزل رؤية فكرية أيديولوجية في نص الأمير، نذكر الاختيارات الحاصلة على مستوى استحضار الشّخصيات الفاعلة في القصة، ومنها: رئيس الجمهورية الفرنسية (لويس نابليون بونابرت)، ومعاون الأمير (ابن دوران) اليهودي، وبصفة أخصّ، شخصية القس "ديبوش" التي تكلّف الرّاوي كثيرا في تحميلها بُعدا يوتوبيا منزاحا عن كون العلاقة بينها وبين الأمير عبد القادر، هي علاقة عداوة وتنافر، وتقاتل، تخلّلتها بعض فترات الصّفاء، والتّآلف، والتّسامح، والتّراحم.

لقد شكّل حضور شخصية القس (ديبوش)- من جهة أخرى-حيّزا معتبرا عبر كافة أرجاء الرّواية، ليُمكّن الرّاوي من خلالها لرؤياه الحالمة في التّسامح، والتّقارب بين الأديان والثّقافات، أن تتفشى، وأن لا تدع مجالا لظهور أهواء وعواطف أخرى معادية، كما تخيّر للشخصيات الأخرى، التي قد تتطرّف بمواقفها وعواطفها المجالَين الزمني والمكاني المناسبين ليظهرها، وهما المجالين اللّذين تعتريهما السكينة والهدوء،

اللّتين لا تسمحان بإبداء التوتّر والثّورة؛ كلّ ذلك حتى يواري الرّاوي ثورة تلك الشّخصيات، ويظهر منها الجانب الذي أراده منها، ويظهر الكل في حال مهادنة، وتصافٍ.

ومن مظاهر الانتقائية التي تستبطن رؤيا خاصة لتاريخ الأمير نذكر الانتقائية في التّرتيب الزمني لأحداث القصة، وفي سرد أحداث دون أخرى؛ حيث يختلف الترتيب الزمني (التّاريخي) لأحداث قصّة الأمير عبد القادر في الواقع عن ترتيبها في العمل السّردي المقدّم إلينا في "كتاب الأمير" لواسيني، أين عمد السّارد إلى قلب هذا التّرتيب، فبدأ بسرد النّهايات، ثم عاد إلى فترة كفاح الأمير، وما تخلّلها من نصر، وهزيمة، وعقده للاتفاقيات، وصولا إلى الحدث الذي سلّم فيه الأمير نفسه، والتزامه بعدم قتال فرنسا، مع تركيز واضح على فترة الاعتقال، وما تخلّلها من تنقلات قام بها الأمير في فرنسا كان الهدف الأبرز منها-كما يبدو-إظهار انبهار الأمير بالحضارة الغربية وتفوّقها، ومن ثمّة محاولة تبرير جنوح الأمير إلى الاستسلام.

إنّ قراءةً تأويليةً للترتيب الزّمني المقدم في سرد أحداث رواية الأمير، الذي عمل فيه واسيني على قلب مجريات الأحداث، والتّصرف في ترتيبها الزّمني، تقديما وتأخيرا، وزيادة ونقصانا...وبالنّظر كذلك حتى في الانتقائية المعتمدة في سرد أحداث، وتخطي أخرى، تشي بتقصّد الرّاوي إبراز دلالات تلك الأحداث على حساب الأخرى، والتركيز عليها دون غيرها، هذه الأحداث وإيحاءاتها، هي التي تسعف الرّاوي في تقديم قراءته الخاصّة للتّاريخ الماضي والحاضر والقادم، قراءة تستبطن فكرا، ورؤيا، وايديولوجيا خاصة بالرّاوي، قدّم منها أميره المُتصوَّر، لا الأمير عبد القادر واقعا.

وإذا قَبلنا من الرّوائي أن يكون أسير فكرة مهيمنة عليه تدفعه لرسم شخصياته التّاريخية، وتَمثُّلِ الأحداث المتعلّقة بها، وفق مسيرة زمنية يرتضيها، وفي أماكن مُعيِنَةٍ على ذلك ينتخِبُها، كلٌّ وِفْقَ مرجعيات ثقافية واجتماعية متغلغلة فيه؛ فإنّ المحذور منه هو التباس الحق بالباطل فيما يُسَوَّقُ لقارئٍ إمّا أن يكون جاهلا بحيثيات القصّة الأصلية، فيُعمّى عليه الحقّ، وتهيمنُ عليه نظرة الرّاوي المأدلجة وتنطلي عليه؛ أو أن يكون قارئا عالما بها، تستهويه الخُروقات، والخروج عن المألوف، واتّباعُ كلّ مُختَلِفٍ، فيسعى إلى إذاعتها، والتّرويج لها، لاتفاقها مع هواه، أو أيديولوجيته هو كذلك. أو على الأقل ستخرق أفق توقعه؛ لأنّ تفاعله كان مع عتبة العنوان التي تمارس عليه إغراءً ليتعامل معها على أساس أنّ النصّ تاريخي، يفترض به التزام الحقائق التّاريخية المتعارف عليها.

2.4 مركزية الهامش، وتهميش المركز:

تتخذ الرّواية التّاريخية التّاريخَ إطارا تتحرك في ضوئه الأحداث والشّخصيات، لذلك يفترض منها أن تحافظ على صورتها الأصيلة، وعلى جوهرها، وأن تنأى بها عمّا يشوّهها من تحريف أو زيادة أو نقصان. لكن تسلّط فكرة ما على ذهن القاص والانسياق وراء أيديولوجيا معينة، يجعل الرّوائي أسير تلك المؤثرات الأيديولوجية، وتدفعه إلى رسم شخصيات قصّته، وأحداثها، وفق ما يخدم أفكاره، واتجاهاته.

إنّ اعتماد التّخييل في الرّواية التّاريخية لاستكمال ما يظهر فيها من فراغات تعوق نمو الأحداث بصورة واضحة في ذهن المتلقي،

يتطلب تصوّر أفاعيل تقوم بها تلك الشخصيات، وأحاديث على ألسنتها تتماشى مع طبيعتها ومكنوناتها، وتراعي بواطنها، وأساريرها، ودوافعها، وتكون أكثر واقعية وإقناع، حتى لا تتنافى مع ما ترسّخ في الأذهان حول تلك الشّخصيات؛ ولكن سعي واسيني في تحقيق ذلك جرّ عليه "**انتقادات كثيرة، خاصة فيما تعلّق بتعامله مع صورة الأنا والآخر في روايته (كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد)، حيث تبدو صورة الأنا في حالة الاستسلام الكلّي أمام الآخر الذي رسمه متسامحا، رغم أنّه اعتدى على أرض ليست أرضه، واستعبد شعبا بل شعوبا طيلة قرون من الزمان، ولا يزال.**" (فايد، 1437هـ/2017م، صفحة 103)

لم يكن الرّوائي واسيني الأعرج، إذا، وقّافا عند الحقائق التّاريخية في قصّة الأمير، بل دعاه تخيّلُه أحداثَ القصّةِ ونسجَها على الوجه الذي يرتضيه إلى التّلاعب بسير أحداثها، وذلك سعيا منه إلى ترسيخ أيديولوجيا تقوم على تعميق قيم التّسامح بين البشر، والتّقارب بين الأديان والثّقافات، والحث على فضيلة البذل، والتّضحية في سبيل الآخر، ونبذ التّطرّف الدّيني والعرقي. ومن التّفريط في دقة الأحداث التّاريخية الذي يحسّه قارئ رواية الأمير؛ هو زعزعةُ ثوابتَ ويقينيات حول شخصية الأمير، مقابل الاحتفاء المبالغ فيه بشخصية القس ديبوش، هذا الأخير الذي جعله السّارد يتبوّأ صدارة مشهد الدّعوة إلى قيم التّسامح، ومثال الرّجل الوفي، الخدوم، المتسامح، العالم، الرّباني الورع... وهو الذي يُسجّل له التّاريخ استماتته من أجل تنصير الجزائر، والسّعي للسيطرة على كلّ إفريقية. باستخدام شتّى الطّرق.

إنّ المتمعّن في روايات واسيني، عموما، سيتحسّس قسوة هذا الأديب على ثقافته المحلية، وجَهدَهُ في تعداد معايبها وازدرائها، وبالتالي تهميشها، مقابل إبداء انبهاره وانجذابه لثقافة الآخر (الغربي)؛ وصورة الأمير عبد القادر في رواية (كتاب الأمير) ليست استثناءً من هذا الحكم، فـ "جلد الذّات"، الذي وسم أعمال واسيني مستمرٌ من طريقة تهميش ملامح شخصية الأمير عبد القادر حتى تلاشت هذه الشّخصية، وأَفَلَتْ وراء شخصيات القصّة الأخرى، وتحوّلت هذه الشّخصية من بؤرة كان من المفروض أن تدور حولها مختلف قيم التّسامح، والتّحاور، والإنسانية، التي نشد واسيني تعميمها، وترسيخها، إلى مجرّد مساعد يسهم في تلميع صورة الآخر، بل إلى تأصيل تلك القيم النبيلة فيه على حساب الذّات.

وشتّان بين الصّورة التي ترسّخت في الوجدان لأمير قائدٍ، مجاهدٍ، مقاومٍ، حامٍ لحمى الدّين، والوطن والحرمات، المسالم لمن معه من المجاهدين، الحربِ على أعدائه، والمسامح لهم عند اقتداره عليهم؛ وبين صورة ممسوخة قدّمها واسيني لأميرٍ خانعٍ، مستسلمٍ، عاجزٍ، ليس له من هم سوى استجداء وُد الآخر. تأمّل-مثلا-قول الأمير مخاطبا مونسنيور ديبوش: " **روحك غالية عليّ، ومستعدّ لأمنح دمي لإنقاذها، امنحني من وقتك قليلا لأتعرّف على دينك، وإذا اقتنعت به، سرتُ نحوه**" (الأعرج، 2008م، صفحة 51)، ثم تمعّن الانهزامية، والارتماء في أحضان العدوّ البادية من قوله: "**لم أعد اليوم ممن يلتجئون إلى الأسلحة، سأدعو في صلواتي لسموكم ولبلادكم العظيمة خيرا وهداية، أما ما يحدث هناك، في تلك الأرض الطّيبة، الله وحده يعرف**

سرّ عواقب الأشياء، أتمنى فقط خيرا للكل." (الأعرج، 2008م، صفحة 585) لقد جرّ واسيني تلك الأقوال، (والدّعوات خاصة) على لسان الأمير مؤمّلا ترسيخ قيمٍ مُثلى يصعب تمثّلها في رجل ناصب العداء، والحرب، مدّةً ناهزت الخمس عشرة سنة، وتناسى وضعَه أسيرَ حربٍ قد تُلجئُه الحاجةُ إلى المداراة، والتّقية للتخلّص ممّا هو فيه من معاناة.

إنّنا لا نعادي أو نرفض تلك السّمات الرّاقية، السّامية، التي أرادها واسيني في (أميره)، النّابعة من قيم التّسامح المتأصّلة في ديننا الحنيف؛ ولكن أن يهدم، ويميّع كل مقوّمات تلك الشّخصية، ويذيبها في الآخر المعتدي، أو أن يعزلها عن الثّقافة العربية الإسلامية الحاضنة لفكر الأمير، ويرميها بكل مظاهر القسوة، والعنف، والهمجية، كما يستشف ذلك من قوله على لسان الأمير: "**تربية شعب تعوّد على الغزوة والنّهب والتّفكير في الحصول على مال جاره، ليس أمرا هينا. قد نموت ويأتي من يخلفنا ولا يتغير الأمر إلا قليلا. هذا النّمط متأصّل في النّفس ...**" (الأعرج، 2008م، صفحة 117)، أو من قوله على لسان الأمير، كذلك: "**ها قد عدنا لإسلام لا يعرف إلا الحرق والتّدمير والقتل والإبادة والغنيمة كما ألصقت هذه الصّورة بنا...**" (الأعرج، 2008م، صفحة 409)، أو من قوله كذلك: " **لدينا ما هو أسوأ في تاريخنا الإسلامي. معظم خلفائنا مرّوا على النّصل، قُتلوا من ذويهم، كبار علمائنا أحرقوا ...**" (الأعرج، 2008م، صفحة 146)؛ فذلك الذي يثير حفيظة القارئ العربي عموما؛ لأنّ من شأن هذه النّظرة الانتقائية المُجزَّئة، التي تحاول أن تستثني الأمير من ثقافته، وتعزله عنها، أن تضع مقوّمات الثّقافة العربية الإسلامية موضع الاتّهام؛ وتنتصر-بالمقابل-لادّعاءات أيديولوجية تنتصر لفكر العولمة، والحرية، والانفتاح، التي تسعى إلى صهر الفوارق، والاختلافات، الكائنة بين ثقافات البشر، دون مراعاة خصوصية كل فئة، والتّباين الذي فطر الله النّاس عليه.

إنّنا لا ننكر على الرّوائي-كما سبق القول- جنوحه إلى المبالغة في إبراز قيم التّسامح والتّعايش سابقة الذّكر بين الأعراق والأديان المختلفة أصلا، أو جمعها في شخصيتي الأمير، والقس ديبوش؛ ولكن يُنكر عليه بُعدها عن الواقع الذي يعيشه النّاس أتباع تلك الثّقافات المتباينة فيما بينهم؛ إذ لا يمكن التّغاضي عمّا تدعو إليه مفاهيم النّاس الخاصّة، واعتقاداتهم، من حثّ على السّيطرة والتّفوّق على الآخر، وإخضاعه، وهو الذي مارسته فرنسا الاستعمارية، بمباركة رجال دينها، أمثال القس ديبوش، نفسه، وغيره كُثر.

وإذا كان جمهور النّقاد على احترام حرية المبدع في مقاربة نصّه وفق شروط أدبية تخييلية، تكفل له النّفاذ فيما كان، وما لم يكن، من أحداث تتجاوز أحيانا حرفية التّاريخ الرّسمي؛ فإنّ التّحفّظ قائم على مثل هذا الطّرح الذي يصرّ على تلك الخروقات، والتي تُفصحُ، بدورها، على توجّهات داخلية للأديب.

3.4 البتر:

تعتبر رواية كتاب الأمير (النّص الرّوائي) امتدادا للقصّة الحقيقية (النّص التّاريخي)؛ ولذلك يُنظر إلى التّعالق النّصي بين النّصّين من جهة آليات التّناص المعروفة، والمحدّدة عند أعلام النّظرية التّناصية، فيكون النّص اللّاحق (الرّواية) تحويلا عن النّصّ السّابق (القصة

التّاريخية) أو تحويرا وتغييرا له، ويكون ذلك-من النّاحية الكمّية-إمّا على سبيل التّوسيع اللّفظي أو المضموني، أو على وجه التضييق أو الإيجاز [4]. (عذاوري، 2012، صفحة 84، 85)

وبالنّظر إلى ما اعتمده واسيني في روايته عن الأمير، نجده يراوح في سرد أحداث قصّته بين استخدام آليات التّحويل النّصّي المختلفة، والمناسبة، ولا شك في أنّ انتهاج إحدى تلك الآليات دون سواها لن يكون عبثا، بل أساسه الحاجة إلى التّركيز على أحداث، أو مواقف، أو حجبها، وتهميشها... ويمكن للقارئ استشفاف بعض الغايات الفكرية، والايديولوجية من تلك الخيارات التّناصية المعتمدة؛ ويأتي في مقدّمة تلك الآليات: آلية البتر، التي تعتبرُ من أبسط أشكال الاختصار، بحيث يقوم فيها النّص اللاّحق باقتطاع أجزاء من النّص السّابق دون أيّ تدخل آخر في العمل. (عذاوري، 2012، صفحة 85)

ويظهر البتر في رواية الأمير بشكل ملفت في تجاهل الرّاوي قصّة الأمير في دمشق، وما تخلّلها من مواقف إنسانية، وسياسية، تؤهّلها أن تكون مادة دسمة في استكمال رؤية الرّاوي المعلنة، حول قيم التّسامح، والتّقارب بين الأديان، والأعراق، والثقافات؛ فلماذا تجاهل واسيني تتمّة المشهد (قصة الأمير في دمشق)، وما خالطه من رفعة، وتسامح، وقيم إسلامية سامية، كان من الممكنِ أنْ تسهمَ أكثرَ في إبرازِ الشّخصيةِ العربية الإسلامية للأمير، على سجيّتها، وعلى أصالتها، بعيدا عن ضغوط الأسر، وتكلّف التّزلّف إلى المستعمر؟ لماذا اكتفى في تشكيل صورة أميره بما كان من حياة الأمير في أثناء محنتي الكفاح، والأسر؟ علما أنّ تلك السّيرة المشرقية لم يغب عنها العنصر المسيحي، الذي احتفى به كثيرا فيما عرضه من سيرة الأمير.

5. مظاهر ايديولوجية في رواية الأمير.

تعدّدت المظاهر الأيديولوجية الماثلة في رواية الأمير عبد القادر، ونقف منها على:

1.5 الرّؤيا المادية، الوجودية:

تستبطن العملية السّردية في رواية الأمير رؤيا وجودية تتهم بعض اليقينيات، وتعلّق عليها تبعات التّخلّف من عديد المواقف التّاريخية التي يعرضها السّرد؛ ففي حديث للأمير عبد القادر مع صهره، ابن التّهامي، يُظهر هذا الأخير حزنا وألما بسبب ما آلت إليه الأحوال، ويُردفُ بالدفاع عن حق المجاهدين في رفض التّعامل مع "**من أحرقوا الأحياء في جبال الظّاهرة وغيرها أو قطعوا رأس سيدي مبارك وغيره.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 591) ثم يعرض الرّوائي تدخّلا مطوّلا للأمير فيما يَظهرُ أنّه محاولة من الأمير تصحيحَ أخطاء شائعة لدى ابن التّهامي، وغيره من الجزائريين، عن فرنسا وأروبا. يقول واسيني على لسان الأمير: لقد كانوا "**...يحفرون الأرض ويستخرجون التّربة، ويحوّلونها إلى قطارات بخارية وسفن حربية وسيّارات وقوانين لتسيير البلاد**" (الأعرج، 2008م، صفحة 591)، في حين "**كنّا غارقين في اليقينيات التي ظهر فيما بعد ضعفها، وأنّنا نعيش عصرا انسحب وانتهى.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 591) ويواصل واسيني عرض وجهة نظره وفكره هو، من توظيف مواقف تأمُّلية للأمير، جعلته ينتهي إلى قناعته بالعجز أمام التّحولات الحضارية الهائلة التي عرفتها أوروبا، والتي لا قبل للمشرق بها، وجعلته على يقين بعدم قدرة "المسلمين" على ملاحقة نسق تلك التّحولات التكنولوجية والعسكرية

خاصة، فيُنْطِقُه بالقول: "**الزّمن القادم سيكون عنيفا وقاسيا، وسنكون فيه بعيدين، الشّقّة بيننا وبينهم صارت هوّة. لقد طاروا وانكسرت أجنحتنا الصّغيرة.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 517)

لقد جنّب واسيني أميره "التّطرّف" والانسياق وراء الرّأي الجانح إلى المواجهة، وهو الرّأي الذي يستبطن قناعةَ أنّ أصحاب الحقّ انتصروا في مواطن كثيرة لا بعدّتهم، وعتادهم، وإنّما بوقوفهم مع الحقّ، وبإصرارهم عليه؛ وهو الرأي الذي أعرب عنه "ابن التهامي" في النّص، ويمثّل ثقافة شريحة كبيرة من مجتمعه. إنّه الرّأي الذي يغض الطّرف عن النتائج المحتملة، وعن الفوارق الحضارية الشّاسعة بين المعسكرين، وعن السّنن الكونية التي أودعها الإسلام في أتباعه من ضرورة إعداد عناصر القوة والتمكّن قبل مقارعة المعتدين... لقد استلّ الرّاوي الأميرَ من ثقافته، بطريقة تجعل المتلقي يستشعر أنّ جهاد الأمير بقدر ما كان ضدّ الاستعمار الفرنسي، هو في الوقت نفسه ضدّ تلك الرّؤية الانتحارية التي كان من الممكن أن تجرفَه ودعوتَهُ معا، يقول الراوي على لسان الأمير: "**يا أبي لا تجعلني أندم على إمارة لم أطلبها، حروب المسلمين القدماء لم تعد نافعة، الكلام لم يعد كافيا، كنّا نظنّ أنّنا الأفضل في كلّ شيء، وبدأنا ندرك أنّ الآخرين صنعوا أنفسهم من ضجيجنا الفارغ.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 95)

2.5 العقلانية:

تتماهى وتتوازى فكرة العقلانية مع فكرة الوجودية إلى حد بعيد، فقد أجلى الفكر المعاصر قيما حداثية آمن بها الفرد العربي، وسعى إلى النّظر منها في كل تفاصيل حياته؛ وقد ترجم السّرد الواسيني لأحداث قصّة الأمير فكرا ثوريا متأسّسا على نزعة عقلية، تناهض التّخلف المُتأتي من استكانة شرائح كبيرة من المجتمع إلى التّفسيرات المسطّحة للسّنن الكونية عموما. وإهمالها الاحتكام إلى المنطق والعقل في تدبير شؤونها. وتُستشفُّ هذه النّزعة العقلانية من نظرة الإعجاب، والاستحسان، والتّبجيل، في أحداث تاريخية تتقدّمها أفعال الأمير وأقواله، وردود أفعاله، خاصة بعدما ضاقت عليه سبل مقارعة الاستعمار، حيث أذعن الأمير للأمر الواقع، ولم يشأ مواصلة القتال، مفضّلا حقن دماء الأهالي، والاستسلام، على الزّج بهم في أتون حرب لا قبل لهم بها، فالفوارق عميقة بين القوتين، والبون شاسع بين من تسلّح بالعلم والعمل، وبين من أغرق في البداوة، يقول الرّاوي: " **شَعَرَ الأمير بأن ما كان يحدث أمام عينيه كان مذهلا وكبيرا، وعرف لماذا خسر حربه الأخيرة، العالم كان يتغير بعمق وسرعة، لم يعد السّيف والشّجاعة يكفيان، فالمدافع الضّخمة، والآلات السريعة، والسّفن، والعوّامات التّجارية، والجيوش المجهزة والمنظمة، غيرت كل الموازين.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 503)، لم يرتهن الأمير في تدبير موقفه من الاستعمار الفرنسي وآلته الحربية، إلى العواطف والوجدانيات، التي كانت لتملي عليه مواصلة القتال وعدم الاكتراث إلى ما جمعه الخصوم له من عدّة وعتاد؛ غير أنّ بصيرته، وتعقّله، جعله ينحاز إلى أن يُبقيَ مِنْ بني ملّته وعرقه من سيُعاود الكَرّة على العدوّ، على أن يَأْتِيَ هو على شأفتهم جميعا، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

كما أفصح السّرد على شخصية قائد مثقّف متشبّعة بروح صوفية (متعقلنة) سعت إلى النّظر

في شؤون المجتمع بنظرات الرّاسخين في التّصوّف من أمثال: ابن عربي، والتّوحيدي، وغيرهما، لم يتحرج واسيني-حيناها-من الانحياز لقراءات مغايرة في دلالاتها لبعض أحداث قصة الأمير أسفرت عن رؤية أيديولوجية تعتمد فكرا تنويريا، لا بديل عنه في سياسة أمر النّاس والتّعامل فيما بينهم، وهي رؤية تستند إلى العلم، وفقه الواقع، وتفهّم رؤيا الآخر وتقبّلها؛ لتكون مُتَّكَأً لكلّ قائد، أو حركة، أو حزب، يروم تصدّر الفعل السّياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي في حياة الناس. لقد قدّم لنا واسيني قائدا (أميرا) موسوعي المعرفة، وافر الخبرة، بتعريجه على محطات تاريخية مهمة في حياة الأمير جمع فيها أسباب العلم وخبرة الحياة؛ حيث صورت الرّواية رحلات الأمير وزياراته المختلفة إلى: تونس، والحجاز، والشّام، والعراق، والقدس، ودمشق، ومقام صاحب الفتوحات محي الدّين ابن عربي، وذلك لغرض التعبير على النّضج الفكري، والدّيني لدى الأمير، كما تحدّثت عن ولوعه بالعلم، وتعمّقه فيه، كما في محاوراته العلمية للقس ديبوش (الأعرج، 2008م، صفحة 145، 146)، واطلاعه على كتب كثيرة كمقدمة ابن خلدون. وحول ذلك يقول الرّاوي: "**مدّ عبد القادر يده نحو مصنّف المقدمة لابن خلدون. المخطوطة التي دوّن على صفحاتها ملاحظاته الكثيرة، جاءته من بلاد المغرب من تاجر وراق رآه مرّة واحدة عندما دخل عليه خيمته لحظة القيلولة ووضعها في حجره وهو يردد: اقرأها وترحم عليّ أو العني إذ لم تجد فيها ما يشفي الغليل، ثم انسحب، ولم يأخذ حتى ثمنها.**" (الأعرج، 2008م، صفحة 74)

إنّ العقلانية الطّافحة في نظرة الرّاوي للأحداث التّاريخية قيمة إيديولوجية قد تنفي الإرتهان إلى الإيمان بالغيبيات والتّسليم لها في تقدير الأمور، وهي إحدى الرّسائل المشفرّة التي تضمّنها الخطاب السّردي في هذه الرواية لترسيخ رؤية جديدة تعيد قراءة التّاريخ وصياغة أحداثه انطلاقا من فكرة تشكّك في علمية، وحيادية، القراءة الرّسمية للتّاريخ.

4. خاتمة:

عنى البحث الذي بين أيدينا بوجه من وجوه التّجريب في الرّواية العربية المعاصرة، وهو استثمارها الأحداث التّأريخية بطريقة تخييلية تُمكّنُ من النّفاذ في تلافيف المجتمع، واستخراج مخبوء النّفوس، واستنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثّقافي والسّياسي والاجتماعي. وقد اتّخذنا رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج، نموذجا للرّوايات التّاريخية التي بنى فيها الرّاوي قصّته على مادّة تاريخية جاهزة دون أن يكون هدفه من ذلك إعادة تسجيل وقائع تاريخية، بعيدا عن الذّاتية والتّحيّز؛ بقدر احتياجه إلى مادة حكائية تعينه على تقديم رؤية مؤدلجة خاصة عن الحياة، وعن الإنسان، وقد أمكننا البحث من رصد نتائج نوجزها فيما يلي:

- تعلن رواية الأمير رفض واسيني الأعرج الرّواية المتوارثة عن الأمير عبد القادر الجزائري، ولذلك كان سعيه (الواعي) في بعث صورة تنبع عن رؤيا مخالفة، تساير حاضره، وتراعي موقفه من الحياة. منطلقا من قناعة ترى أنّ الرّواية التي تحاور التّاريخ هي عمل فنيّ تخييليّ يستثير الحاضر من استقراء عناصر وأحداث ماضية، ليس بهدف إعادة بعث ذلك التّاريخ وتأكيد قداسته فقط، وإنّما بهدف نقده وتبيان ما أُغفِل أو حُرِّف منه.

- أفضى البحث عن الرّوابط الكامنة بين النّصين: الحاضر (الرّواية) والغائب (النص التّاريخي الأصلي)، إلى القول باعتماد بناءِ النصّ الحاضر على التّاريخ بشكل كبير، إلا أن ذلك لم يُلغ طغيان الجانب التّخييلي على المعطى التّاريخي؛ وهو ما أدى إلى الجنوح نحو تغييرات دقيقة ومقصودة طالت النّص الغائب؛ ومَكَّنت للعالم الرّوائي؛ وهي المطية التي نستعرض منها الحضور الأيديولوجي في الرّواية.

- لقد صوّر واسيني الأمير شخصيةً ببعدٍ إنساني راقٍ؛ زعيما متسامحا، جانحا إلى السّلم، صافحا عن القريب والبعيد، محاورا، متجنّبا سفك الدّماء، حاثا أصحابه على الإحسان بأعدائه وبالأقربين منه؛ وقد قاد واسيني شخصيات القصة الأخرى لتقديم الاعتراف بعظمة شخصية الأمير عن تلك الخلال الإنسانية التي يندر أن تجتمع في رجل واحد، ومن ذلك ما أقرّه ديبوش فيه بالقول: "**ما قام به تجاه الآخرين لا يمكن أن يقوم به إلّا رجل عظيم.... يعذر حتى الذين تسبّبوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيين**." (الأعرج، 2008م، صفحة 46، 47)

- رسّم واسيني قيم التّسامح والتّعايش والتّقارب بين الثقافات والأديان في شخص الأمير من مواقف حياتية بدا فيها منسجما مع الآخر، ومُتقبّلاً عنده، ولكنّنا نلفي إصرارا من الكاتب على عزل تلك القيم عن ثقافة الأمير وعن دينيه، وكأنها قيم تفرّد بها الأمير وتخصّه بمعزل عن تلك الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما يُلمَحُ فيه انتقائية مجحفة، انتخب منها ما يتلاءم مع ما تبتغيه بعض الدّوائر التّغريبية والغربية، وسردًا يَدّثِرُ أيديولوجيا تسعى إلى إسلام مهادن، خانع، مفرّط في حقوق المنتسبين إليه، باسم التّسامح، والإخاء، والحبّ الذي تنكره شرائع الدّاعين إلى ذلك التّحاور والتّقارب بين الثقافات المختلفة أنفسهم.

- يواري الخطاب الرّوائي لواسيني نسقا أيديولوجيا، سعى إلى تمريره باستعمال خطاب أدبي يشتغل على فنّيات لغوية جمالية مهيمنة، قادرة على صهر عناصر ذلك النّسق الأيديولوجي ومزجها بحرفية ضمن نظام أدبي وثقافي مبدع.

- رواية الأمير رؤيا نقدية حيال كل ما أحاط بشخصية الأمير عبد القادر، زعزع منها واسيني الأعرج صورة نمطية أحاطت بتلك الشّخصية الفذّة؛ وأعاد صياغتها وفق تقنيات الكتابة الحديثة، محاولا منها إعادة تشكيل الذّاكرة الجماعية، وتوجيه الرّؤية الفلسفية التي انطلق منها الأمير في مقاومته للاستعمار الفرنسي، ورسم معالم أيديولوجيا مغايرة في التّعامل مع الآخر، أساسها: الحكمة، الواقعية، التّسامح، التّحاور، الرّحمة.

- رواية "كتاب الأمير" محاولة أدبية تحاول الانتصار للثّقافة العربية الإسلامية، ودحض تُهمتا الإرهاب والعنف عنها؛ بوضعها موضع حواريةٍ مجسّدةٍ من شخصيتين تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين، شخصية القس ديبوش، وشخصية الأمير عبد القادر؛ أين تمثّل الشّخصية الأولى ثقافة الغازي (وهي الثّقافة المتَّهِمَةُ)، وتمثّل الثّانية ثقافة المغزُوِّ (وهي الثّقافةُ المُتَّهَمَةُ)؛ ولكن مبالغة الكاتب في تبرير الأفعال الصّادرة عن الثقافة الغازية تُقابِلُهُ القسوةُ في الحكم على ردود أفعالِ الثّقافة المغزوّة، ممّا يُشعرُ المُتلقّي ببراءة ساحة الغزاة، وأحقية التّهم الموجّهة إلى الثّقافة المحلية.

- بكتابه حول الأمير ينزاح واسيني بكل ثقله تجاه أيديولوجيا تعلي من شأن التّقارب بين الشّعوب، وترى بإمكانية التّعايش بينها، وبالتّالي نبذ الاختلاف والتّناحر، وإحلال التّسامح، والتّرافد بين الثّقافات والأديان، وهي النّظرة التي يمكن أن يُستشَفّ منها مُخامرةُ فكرةِ قابلية الانصهار والاندماج بين الثّقافات ذهنَ الكاتب (وكأن لسان الحال يقول: التئام شمل الفرنسيين والجزائرين تحت مظلة الأقوى خير من تفرقهما). وقد يستشف ذلك من مواطن سردية سعى فيها الكاتب تنزيهَ الغازي، وتبرير مواقفه وأعماله إمّا بدعوى تحضّره، أو قوته، أو عبثية مقارعته؛ بمقابل مواطنَ سردية أخرى تزدري الأنا، وتمجّ بداوته، وتستخسر فيه ملامح وجودية كإقامة دولة.

- تكشف الرّواية عن أيديولوجية حداثية تتأسّس على قيم العولمة الدّاعية إلى التّعايش، والمسالمة، وهي قيم لا تتعارض مع قيم دينية سماوية أصيلة، ولم تُركّزْ عليها الصّورة النّمطية (الرّسمية، والشّعبية) للأمير عبد القادر. غير أنّ تعميم تلك القيم (التّسامح، والتّعايش) لتشمل الآخر الغازي، وجعله الأحق بها من دون الأنا المغزُوّ، يبقى ضمن إطار نظرة الرّاوي الحالمة، التي أفصح عنها السّرد، وجانبها الواقع.

5. قائمة المراجع:

أحمد الجوّة. (2010). تفاعل التّأريخي والرّوائي في "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج. مجلة قراءات(ع: 2010)، الصفحات 285- 304.

أسامة محمد البحيري. (جمادى الأولى، مايو، 1430هـ، 2009م). تفاعل السّرد والتّاريخ في الرّواية اليمنية الجديدة. مجلة علامات، مج 18(ع 69)، الصفحات 751 - 774.

جميل حمداوي. (2020). النّظرية الشّكلانية في الأدب والنّقد والفن. الناظور، تطوان، المغرب: دار الرّيف للطبع والنشر.

جورج لوكاتش. (1986م). الرّواية التّاريخية. (جواد صلاح كاظم، المترجمون) بغداد، العراق: دار الشّؤون الّثقافيةالعامة، وزارة الثّقافة والإعلام.

حميد لحميداني. (1990م). النّقد الرّوائي والايديولوجيا، من سوسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا النّص الرّوائي. بيروت، لبنان: المركز الثّقافي العربي.

سليمة عذاوري. (2012). شعرية التّناص في الرّواية العربية-الرّواية والتّاريخ-. القاهرة، مصر: رؤية للنشر والتوزيع.

صابر محمد عبيد، و سوسن البياتي. (2008). جماليات التّشكيل الرّوائي. اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

ماجدة حمود. (تشرين الثّاني، 2013م). الأمير عبد القادر الجزائري بين الرّواية والتّاريخ. مجلة الموقف الأدبي(ع 511)، الصفحات 155 - 168.

محمد سالمي. (جانفي، 2021م). تماهي الإخبار التّاريخي والسّرد الرّوائي في رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج. مجلة بدايات، مج 2(ع 3)، الصفحات 36 - 49.

محمد فايد. (رمضان/ جوان، 1437هـ/2017م). تجربة الرّواية التّاريخية في الأدب الجزائري، قراءة في نص (كتاب الأمير) لواسيني الأعرج. مجلة نتائج الفكر(ع:2)، الصفحات 88 - 108.

واسيني الأعرج. (2008م). كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد. بيروت، لبنان: دار الآداب للنشر والتوزيع.

6. ملاحق:

(**1**): ميّز المختصون بين السّرد التّاريخي (le récit historique)، والسّرد الرّوائي (le récit romanesque) من جهة نظام الأحداث، والفجوات التي تظهر في السّرد الرّوائي، فاعتبر جيرار جينيت أنّ السّرد الحدثي أو الوقائعي (le récit factuel) يقدّم فيه نظام الأحداث اعتمادا على مصادر أخرى، في حين لا يعرف السّرد التّخيلي (le récit fictionnel) ذلك النّظام، وتكون فيه الانقطاعات (les anachronies) غير محدّدة. ينظر: أحمد الجوة، تفاعل التّاريخي والرّوائي في "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج، مجلة قراءات، مخبر وحدة التّكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة، ع:2010م، ص:285.

(**2**) يتكون العمل أو النص الأدبي من متن حكائي ومبنى حكائي، أو ما يسمى أيضا بالقصة والخطاب، أو المضمون والشّكل...

فالمتن الحكائي هو: "مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل. إن المتن الحكائي يمكن أن يعرض بطريقة عملية، حسب النظام الطبيعي، بمعنى: النظام الوقتي والسببي للأحداث، وباستقلال عن الطريقة التي نظمت بها تلك الأحداث أو أدخلت في العمل.

أمّا المبنى الحكائي؛ فيتألف من الأحداث نفسها، بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا.

وهكذا، فالمتن الحكائي عبارة عن أحداث تنجزها الشّخصيات في فضاء ما. في حين، يرتكز المبنى الحكائي على الصياغة، والمنظور السردي، والوصف، ودراسة زمنية الخطاب السردي... ينظر: جميل حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب والنّقد والفن، دار الرّيف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور، تطوان، المملكة المغربية، ط:1، 2020م، ص ص:70، 71.

(**3**): قسم الرّاوي كتاب الأمير أبوابا، وجعل في كلّ باب مجموعة من الوقفات، وعنون كلا منها بعنوان ارتضاه.

(4): يتم التّعالق بين نصّين ضمن آليتين رئيستين هما: المحاكاة، والتحويل؛ فالمحاكاة هي: قول شيء آخر بالطريقة نفسها. وأمّا التّحويل فهو: قول الشّيء نفسه بطريقة مختلفة، أي إحداث تغيير في النّص السّابق عند كتابة النّص الجديد، ويجعلُ (جيرار جنيت) مختلف آليات التّحويل بين النّصوص ضمن مستويين عامين: تحويل في عدد الوحدات، ويسمى التّحويل الكمّي؛ وتحويل في الطّريقة، يسمى التّحويل الصّيغي. ويقسمُ التّحويل الكمّي إلى قسمين رئيسين هما: الحذف (ومنه: الايجاز، والبتر، والتّكثيف)، والإضافة (ومنه: التّمطيط، الإسهاب، والتّوسيع).